وظائفها في دوائر مغلقة، هذا إنْ بقيتْ تحمل مشروعيةَ بنائها الهندسي والعمراني في كياناتٍ مغلقةٍ لا تنتج إلاّ الحروبَ العلنيةَ والسريّة. هذه هي مدنُ القبائل والعشائر، العاجزةُ بفعل الكبح السياسي الداخلي العربي، والخارجي العولمي، عن أن تكون مساحةَ وطنٍ تتحدّد فيه «العروشُ الدنيوية» بخطابٍ ديمقراطيٍّ شاملٍ وعميقٍ يتأسّس على العَلْمانية.

ليست أيُّ مدينةٍ عربيةٍ خريطةً مصغّرةً للكيان القُطْريّ الذي تنتمي إليه، بل هي النموذجُ المدرسي لمدن الوطن العربي كلّها، العاجزةِ عن تحرير نفسها، بل بسبب الكبت والقمع والإلغاء والاختزال، الداخلي والخارجي، وبسبب فقدان عناصر ترابط الهوية بين المدن العربية.

وممّا يثير العجبَ فعلاً أنّ مجرد لفظِ مصطلح «هوية» قد اعتبره الكثيرون مدخلاً لحرق كلّ العناصر الثقافية المكوّنة للذات. غير أنّ الهوية ليست ثوابتَ يقينيةً مومياوية، بل فعلٌ متحرّك، وتكتسب حركيّتها بالتنوّع. لكنّ ما فعله النظامُ العربي الرسمي بالمدينة العربية هو تحويلُها إلى هويةِ سوقٍ، بحيث تتوسّع المدينةُ العربية بمقدار تحوّلها إلى سوق. ولم يكن ذلك ناتجًا عن فعل أبناء الريف القادمين من القرى والدساكر والذين يحملون قوى العمل الحقيقية، بل نتيجة للتزاوج الكاثوليكي الحاصل بين الطبقة السياسية المسيطرة والبرجوازية الطفيلية المتعولمة.

فهل يمكن الحديثُ عن رأسمالية عربية مستقلّة قادرة على منح المدينة العربية هويّتَها الخاصّة؟ وهل يمكن الحديثُ عن طبقة عاملة عربية متجانسة قادرة على الانطلاق بمشروعها السياسي الموسوم بمدينتها الخاصة؟ وهل يمكن للتيارات الليبرالية والنيوليبرالية السياسية، إنْ وُجدتْ، أن تنشئ بُنى قابلةً للاستمرار في الكيانات العربية المعزولة بعضها عن بعض، إذا أهدرنا تلك القابليةَ على الانخراط في تحالفٍ ديموقراطي شعبي يَطْرح إشكاليةَ سؤال الوطن بطرائق تغييرية حداثية؟

وبالعودة إلى مقولة المفكّر العربي الكبير سمير أمين: «بربرية، أم اشتراكية، ولا احتمالَ ثالثًا بينهما،» نستنتج أنّ العجزَ الحاصل في أفق المشروع الاشتراكي العربي، ومن ثمّ هزيمتَه، أنتجا بربريةً متستّرةً أحيانًا وعلنيةً أحيانًا أخرى، تتلطّى في معظم المدن العربية، منتجةً خطابًا سياسيّاً يَرْطن بالعبث والاختزال والرياء والإلغاء والانعزالية. لذلك، فإنّ كلّ المدن العربية متشابهة: إسمنتٌ وحديدٌ، وأطرافٌ توتيائية، وقبائلُ تختبئ تحت عباءات الدخان، وحواراتٌ ثقافية هشّة وهامشية، وثقافةُ مهرجانات، ورؤساء تحرير ودواوين.

❖ ❖

كنّا في بيروت في نهاية عام ١٩٩٨ مشاركين في ندوة «المثقف العربي والهوية.» وكنّا خارجين من المعرض العربي للكتاب، برفقة الدكتوريْن صلاح فضل وموفّق محادين. وبعد أن ملأنا أعينَنا بالمشهد البيروتي الاسمنتي، الذي أكمله لنا سائقُ السيارة، قلتُ لأستاذيَّ المرافقيْن: «المدن العربية متشابهة في كلّ شيء... حتى في السُّباب، وإنْ لم تفتحْ أحضانَها لشقيقاتها... فخلفَ هذا الإسمنت الداكن يختبئ زعماءُ الطوائف المسلّحون بالعبث والبنادق.»

**حمص**

---

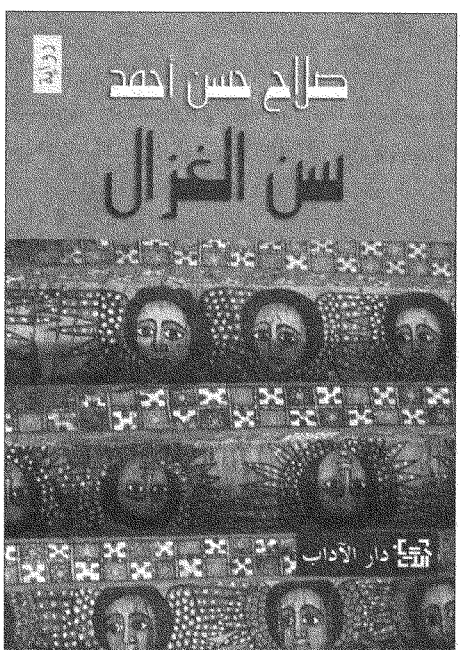


**تقع أحداث هذه الرواية على ضفاف النيل، وتتّخذ من العشق المدمّر محرّكًا أساسيّاً لها. وهي تستمدّ نسيجَها الدرامي من خليط من الأسطورة والمعجزة، وتصادُمِ المعقول باللامعقول. وتفتح الرواية نوافذ ثقافيّة إلى كمٍّ هائل من الموروث الشعبي والديني والتاريخي، إذ تمتدّ وقائعُها على مدى ثلاثة قرون في زمن من عالمنا قد لا يكون القارئ العربي ملمّاً به.**

**صلاح حسن أحمد خرّيج كلية الآداب في جامعة الخرطوم. له أعمالٌ درامية إذاعية ومسرحية بُثّت وعُرضتْ في السودان، وأعمالٌ قصصية أخرى. وله أيضًا اهتمامات جادّة بالتأليف الموسيقي والتصوير الفوتوغرافي والتلوين. يعيش مع زوجته وابنته ويعمل بالصحافة والترجمة في لندن منذ عام ١٩٨١.**